إن الكثير من التوظيف الشخصي في هذه الدراسة يستمد من وعيي لكوني « شرقياً » ، كطفل نما وترعرع في مستعمرتين بريطانيتين . وكل التربية والتعليم الذي تلقيته في هاتين المستعمرتين (فلسطين ومصر) وفي الولايات المتحدة ، كان غربياً ، ومع ذلك فقد بقي قائماً ذلك الوعي العميق المبكر . وفي طرق عديدة فان دراستي عن الاستشراق قد كانت محاولة لوضع قائمة جردية بالآثار التي خلفتها في نفسي ، أنا الموضوع الشرقي ، تلك الثقافة أو الحضارة التي كانت سيطرتها عاملا قويا للغاية في حياة جميع الشرقيين . ولهذا السبب فان الشرق الاسلامي بالنسبة لي كان يجب ان يؤلف مركز الاهتمام ، وسواء كانت القائمة الجردية التي أنجزتها هي القائمة التي يصفها غرامشي ، فالحكم على ذلك ليس منوطاً بي ، بالرغم من شعوري بأهمية كوني واعياً لمحاولة انتاج مثل تلك القائمة . وعلى امتداد المسيرة التي قطعتها في هذه الدراسة ، لقد حاولت متسلحا بدرجة من الصرامة والعقلانية على قدر الامكان أن أحافظ على وعي نقدي ، هذا بالاضافة إلى استخدام تلك الأدوات في البحث التاريخي والانساني والثقافي التي جعلتني تربيتي العلمية المستفيد المحظوظ منها ، غير انني في كل ذلك لم أفقد أبداً سيطرتي على الواقع الثقافي (الحضاري) والتورط الشخصي الناجم عن كوني « إنساناً شرقياً » .

إن الظروف التاريخية التي تجعل مثل هذه الدراسة امراً ممكناً هي معقدة تماماً ، ولا يسعني هنا سوى سردها بشكل منسق ومنتظم . وكل امرئ مقيم في الغرب منذ الخمسينات ، ولا سيما في الولايات المتحدة الأميركية ، لا بد انه عاش خلال حقبة من الاضطراب غير المألوف في العلاقات بين الشرق والغرب .. فلا أحد من الناس قد أخفق في الملاحظة كيف ان « المشرق » قد دل دائماً على الخطر والتهديد خلال هذه الفترة ، حتى عندما كان يعني الشرق التقليدي وروسيا على السواء ، ولقد أدى في الجامعات نمو متزايد لانشاء برامج ومعاهد دراسات المنطقة إلى جعل دراسة الشرق فرعاً من فروع السياسة القومية . وتشتمل الشؤون العامة في هذه البلاد (اميركا) على اهتمام معاق بالشرق ، ومرد هذا الاهتمام عائد إلى أهمية الشرق الاستراتيجية والاقتصادية بقدر ما يعود إلى غرابته التقليدية ، واذا كان العالم قد أصبح على الفور في متناول مواطن غربي يعيش في العصر الالكتروني ، فان الشرق قد اقترب منه أيضاً ، ولربما هو الآن أقل منه أسطورة من كونه مكاناً تتقاطع فيه المصالح ، والاميركية منها بنوع خاص .

وثمة ناحية من نواحي العالم الالكتروني ما بعد الحديث وهي انه يوجد هناك تعزيز للقوالب الجامدة التي يتم النظر من خلالها إلى الشرق . فالتلفزيون والأفلام وجميع الموارد المتوافرة لوسائل الاعلام قد حشرت المعلومات في قوالب معيارية مقننة اكثر فأكثر . وبقدر ما يتعلق الأمر بالشرق ، فان المعايرة والقولبة الثقافية الجامدة قد عززت من السيطرة العائدة لعلم دراسة الشياطين والعفاريت الاكاديمي والمتخيل والمتحدر من القرن التاسع عشر بالنسبة إلى « الشرق الغامض والمليء بالأسرار » . هذا لا يصدق على أي شيء مثلما يصدق على الطرق التي يتم بها استيعاب الشرق الأدنى وفهمه . وهناك ثلاثة أمور قد أسهمت في جعل حتى أبسط إدراك للعرب والاسلام شائناً مسيساً للغاية ، لا بل خشناً تقريباً : أولا ، تاريخ التعصب الشعبي المناوئ للعرب والمناهض للاسلام في الغرب ، حيث ينعكس هذا بشكل فوري في تاريخ الاستشراق . ثانياً ، الصراع بين العرب والصهيونية الاسرائيلية وتأثير ذلك على اليهود